العقل الأداتي بوصفه "شرّا" أو مقاربة النظرية النقدية لمسألة الشرّ

كمال بومنير

(جامعة الجزائر2/ الجزائر)

k.boumenir@yahoo.fr

مدخل:

لقد قامت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت منذ نشأتها في الثلاثينات من القرن العشرين بنقد جذري لمشروع التنوير بما هو رمز للحداثة الغربية، هذا ما يظهر بصورة جلية في جدل التنوير الذي كتب بالتشارك بين ماكس هوركهايمرMax Horkheimer وزميله ثيودور أدورنو Théodor Adorno .

هذا، ويعود كتاب جدل التنوير إلى حقبة الأربعينات من القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت هجرة أغلبية مفكري مدرسة فرانكفورت إلى مختلف بلدان العالم وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا بعد الأحداث التي عرفتها ألمانيا إثر صعود النازية ووصولها إلى سدة الحكم، والملاحقات التي تعرض لها الكثير من المثقفين والمفكرين، خاصة من ذوي الأصول اليهودية.

بهذا المعنى، يمكننا القول بأنّ جدل التنوير Dialektik der Aufklärung ظهر في سياق تاريخي متميّز عرفته المجتمعات الغربية في تلك الفترة بعد صعود النظم السياسية الشمولية، كالنازية والفاشية والستالينية وجو الحروب التي عرفتها أوربا في تلك اللحظة التاريخية، وهو الأمر الذي نجد له انعكاسا وأثرا في هذا كتاب، وخاصة ما يتعلق بمفهوم السيطرة وانهيار موقع ومكانة الفرد في المجتمعات المعاصرة إثر ظهور اللاتسامح وإرهاب الدولة الشمولية، بل وتحوّل هذه الأخيرة إلى مصدر لمختلف أشكال الشرّ والكوارث الإنسانية.

لقد انطلق هوركهايمر وأدورنو من المشروع التنويري بما هو لحظة تأسيسية للحداثة الغربية، ومن الأسس أو المبادئ التي قام عليها هذا المشروع أهمها العقل والحرية والعدالة واحترام كرامة الإنسان وحقوقه وفكرة التقدم الإنساني، وهذا قصد التخلص من الظلم الذي ظل يعاني منه الإنسان، ومن مختلف أشكال السيطرة التي عرفها في ظل المؤسسات الدينية والسياسية التي كانت سائدة في أوربا في القرون الوسطى. غير أنه وفي خضم التطور التاريخي تبيّن أنّ المشروع

التنويري أصبح أبعد عن تحقيق المبادئ والقيم الإنسانية التي قام عليها، والتي دافع عنها الفلاسفة التنويريون، من أمثال لوك وكانط ومونتيسكيو وروسو وديدرو وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين الذين عرفتهم أوربا في بداية القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر. لقد اتضح أنّ هذا المشروع لم يعد مؤهلا أو قادرا على تحرير الإنسان من مختلف أشكال السيطرة التي أصبحت تهدّد وجوده، وخاصة في ظل النظم السياسية والاقتصادية الشمولية، أو التوتاليتارية التي بلغت أوجها وقمة طغيانها في اللحظة التاريخية الحاسمة والخطيرة التي عايشها فلاسفة مدرسة فرانكفورت، أي بعد صعود النازية وما حل بأوربا في تلك اللحظة التاريخية[1] ،كما قلنا سابقا، حيث اختفت الحرية وغاب العقل وانقلب التقدم بمفهومه الإنساني إلى انحطاط شامل وتراجع مقلق للغاية. وهذا ما أشار إليه هوركهايمر وأدورنو في مقدمة كتاب جدل التنوير بقولهما: "لم يكن لدينا أدنى شك أن الحرية في المجتمع لا انفصال لها عن الفكر المتنور. كانت هذه نقطة انطلاقنا الأولى بل لقد كان علينا أن ندرك وبوضوح أن مفهوم هذا الفكر ناهيك عن الأشكال التاريخية العينية، ومؤسسات المجتمع التي يتواجد فيها هذا الفكر، إنما تنطوي على بذرة هذا التراجع الذي نعانيه في أيامنا في كل مكان. والتنوير إن لم يبادر بعمل تفكيري يطال هذه اللحظة من التراجع، فهو كمن يقوم بترسيخ قدره الخاص. أما التفكير في المظهر التدميري للتقدم فقد تُرك لأعداء هذا التقدم والفكر الذي ارتمى بعماوة في الذرائعية قد فقد سمته المتعالية وفي الوقت نفسه علاقته بالحقيقة"[2]غير أن السؤال الذي نطرحه هنا هو: كيف أنّ العقل الذي كان في البداية- أي في تلك اللحظة التأسيسية- تعبيرا عن فكرة التقدم الإنساني وعن فكرة تحرير الإنسان، سرعان ما

---

[1] لمزيد من التوضيحات حول هذه المسألة انظر :

Martin Jay *.L'imagination dialectique. Histoire de l'école de Francfort de 1923 à 1950*. Traduit par E.Moreno et A.Spiquiel , Paris, Edition Payot, 1977.

Rolf Wiggershaus *.L'école de Francfort. Histoire développement et signification.* Traduit par L.Gurcel. Paris, Editions puf, 1993.

[2] ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو. **جدل التنوير**، ترجمة جورج كتورة ،بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة 2006، ص 16.

تحوّلت إلى أسطورة تخفي السيطرة والشرّ ؟ أو بعبارة أخرى كيف نفسّر تدمير العقل التنويري لنفسه بحيث أصبحت الإنسانية تخوض في حالة جديدة من البربرية والشرور بدل أن تصل إلى حالة إنسانية حقيقية ؟

1- نحو مقاربة نقدية للعقل الأداتي :

مدرسة فرانكفورت هي التسمية التي أطلقت على مجموعة من الفلاسفة والمفكرين أمثال ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو وهربرت ماركوز وفرانز نيومن وإريك فروم، الذين كانوا ينتمون في الأصل إلى ما يُسمى بمعهد الدراسات الاجتماعية الذي كان مقره بمدينة فرانكفورت الألمانية، الذي تم تأسيسه عام 1923. تولى تسيير المعهد في البداية المفكر السياسي كارل غرونبرغ Carl Grünberg، الذي وجه أعمال المعهد نحو الدراسات الماركسية للإسهام في الانتقال من النظام الرأسمالي إلى النظام الاشتراكي، وفق رؤية ماركسية مفادها أنّ التاريخ يسير نحو تحقيق الاشتراكية. وبعد وفاة غرونبرغ إثر إصابته بمرض خطير تولى هوركهايمر الإشراف على تسيير شؤون المعهد[1]، بحيث لم يعد اهتمامه منصبا على تحقيق النظام الاشتراكي وإنما انصب بالأحرى على بلورة فلسفة اجتماعية ماركسية أو تأسيس رؤية فلسفية اجتماعية شاملة للوضع الذي تعيشه المجتمعات المعاصرة، وفي مقدمتها المجتمع الألماني، هذا كمن جهة، ومن جهة ثانية، تأسيس مشاريع فكرية ومعرفية متعددة الاختصاصات Interdisciplinaire، بحيث لم يعد الاقتصاد السياسي هو العلم المركزي المهيمن على مجموع المعارف الأخرى مثلما كان عليه الأمر في المرحلة الأولى من نشأة معهد الدراسات الاجتماعية، الذي ترأسه كارل غرونبرغ كما أشرنا إلى ذلك سابقا. وهذا ما بيّنه هوركهايمر في محاضرته الافتتاحية عام 1931، بمناسبة توليه مهام الإشراف على معهد الدراسات الاجتماعية، إذ أنّ الوظيفة الأساسية للنظرية النقدية يتمثل في ربط الفلسفة الاجتماعية بالعلوم الاجتماعية (أو الإنسانية) ذات التوجه الميداني أو الأمبيريقي Empirique قصد مقاربة الواقع الاجتماعي من خلال التخصصات الاجتماعية والإنسانية (علم الاجتماع، علم النفس، التاريخ، الاقتصاد السياسي،

---

[1] Martin Jay, *L'imagination dialectique .histoire de l'école de francfort de 1923 à 1950*. Trad. E. Moreno et A.Spiquel, Paris. Éditions. Payot 1977, p 37.

العلوم السياسية)، بحيث تستطيع القيام بمهامها النقدية والكشف عن أسباب الخلل الذي يطال الحياة الاجتماعية قصد إيجاد الحلول المناسبة لعملية التغيير الحقيقي للوضع الاجتماعي القائم، ومن ثمة تحقيق التحرّر الإنساني المنشود والقضاء على أشكال السيطرة والقمع والاستغلال. يقول هوركهايمر ضمن هذا السياق: " يجب أن تكون الفلسفة الاجتماعية منفتحة بالقدر الكافي على العالم ومتأثرة بتطور الدراسات الميدانية (..) فقد حان الوقت لإجراء بحوث يشترك فيها فلاسفة وعلماء اجتماع وعلماء اقتصاد ومؤرخون وعلماء النفس،انطلاقا من التساؤل الفلسفي الحالي "[1].

وهذا يعني أنّ على النشاط الفلسفي الكف عن تأسيس المفاهيم والتصورات بمعزل عن نتائج العلوم الاجتماعية، ولكن دون انغلاقها في بوتقة التخصص الضيق، بحيث يحتفظ هذا النشاط الفلسفي برؤيته الشاملة، ويبقى مشدودا إلى الصورة الكلية، "لأنّ الاهتمام الفلسفي بما هو "عام" و"جوهري" يجب أنّ يشكّل دفعة تبعث الحياة في الدراسات الخاصة المحدَّدة، في الوقت الذي ينبغي فيه أن يظلّ منفتحا بما يكفي لأن يتيح لذاته أن تتأثر وتتغير بفعل هذه الدراسات الملموسة. وبالنسبة لهوركهايمر، فإنّ الدافع إلى التقاط التعالق بين الأشياء ووحدتها الصميمية ليس مبدأ منهجيا وحسب بل مبدأ عملي أيضا. فالركون إلى مقاربة الظواهر الاجتماعية تلك المقاربة المفكّكة والمتشظية، ينطوي على قبول ساذج بالوضع الراهن[2].

لقد تمثلت رغبة هوركهايمر في إنشاء فلسفة اجتماعية ونقدية منفتحة على العلوم الأخرى، بحيث تستطيع في رأيه القيام بمهام تغيير الواقع والعمل التحرّري. انطلاقا من هذا نستطيع القول بأنّ الصياغة الأولى برنامج النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ارتكزت على إنشاء أو تأسيس فلسفة اجتماعية بإمكانها تنظيم دراسات وأبحاث متعددة الاختصاصات والمشارب الفلسفية قصد تفادي الوقوع في

---

[1] Max Horkheimer, « La situation actuelle de la philosophie sociale et les tâches d'un institut de recherche sociale » in *Théorie critique*. Traduit par Luc Ferry et Alain Renault Paris, Payot 1978, p 75.

[2] آلن هاو، **النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت)**. ترجمة ثائر ديب، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2010، ص41.

الانغلاق الفكري العقم الفلسفي والتي وقعت فيها الماركسية الأرثوذوكسية، وهو ما لوحظ في جمع المدرسة بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، وبواسطة توظيف مختلف الاتجاهات الفلسفية (الكانطية،الهيغيلية، الماركسية الفرويدية،الخ) قصد توسيع الرؤية الفلسفية تحقق النظرة الكلية أو الشاملة للمجتمع، وتتفادى بذلك النظرة الاختزالية التي تقع فيها النظريات التقليدية.غير أنه سرعان ما أعلن رواد مدرسة فرانكفورت عن فشل البرنامج الذي تمت صياغته وبلورته في المرحلة التأسيسية،وخاصة بعد وصول النظم الشمولية أو الكليانية Totalitaire، كالنازية والفاشية والستالينية إلى الحكم، وفشل الثورات الاشتراكية في أوربا الغربية، ثم تحوّل النظام الماركسي السوفيتي إلى نظام ديكتاتوري وبيروقراطي مغلق[1]، وما شهدته تلك المرحلة التاريخية من تحولات سياسية مفاجئة وخطيرة قد شكلت عائقا حقيقيا أمام مفكري مدرسة فرانكفورت، الذين اضطر أغلبهم إلى مغادرة ألمانيا والهجرة إلى بلدان أخرى، كفرنسا وسويسرا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. ثم قيام الحرب العالمية الثانية،دفعت رواد المدرسة، ماكس هوركهايمر وأدورنو خاصة، إلى الشك في نجاعة البرنامج الأول الذي تمت صياغته في المرحلة التأسيسية على الرغم أن ثقتهم بهذا البرنامج كانت كبيرة جدا، أي البرنامج الذي أشرنا إليه سابقا والذي قام على تحقيق فلسفة اجتماعية، تربط بين الطابع الفلسفي النظري والطابع الميداني الذي تستقيه من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية، بحيث يمكن إيجاد علاقة متكاملة وكلية. ضمن هذا السياق تبنى كل من هوركهايمر وأدورنو برنامجا جديدا بعد أن تأكد لديهما الفشل الذي مني به البرنامج الأول الذي تمت بلورته في أوائل ثلاثينات القرن العشرين، كما أشرنا إلى ذلك سابقا. هذا، ويعتبر كتاب جدل التنوير منعطفا أساسيا في تطور فكر مدرسة فرانكفورت، بل وعلى تحوّل جذري وعميق في هذا الفكر، بحيث عرف نوعا من التجذر أو الراديكالية في النقد. فإذا كانت النظرية النقدية في المرحلة السابقة مقتنعة بإمكانية تغيير الوضع الاجتماعي والسياسي

[1] عن مسألة تحوّل النظام السوفيتي إلى نظام "مغلق" راجع:
Herbert Marcuse, *Le marxisme soviétique. Analyse critique.* Traduit de l'anglais par Bernard Cases, Paris, Gallimard, 1963.

القائم من خلال القوى الاجتماعية القادرة على إنجاز هذه المهمة على المستوى التاريخي فإنه سرعان ما تم التخلي عن هذه القناعة التي تبددت وانسد باب الأمل في إمكانية إحداث تغيير حقيقي ينقل المجتمع إلى وضع أفضل. لهذا السبب، سيغلب على المرحلة الثانية من تاريخ النظرية النقدية، وخاصة بعد صدور كتاب جدل التنوير الطابع التشاؤمي، وتحوّل النقد إلى صورته الراديكالية أو الجذرية لمشروع التنوير بما هو رمز الحداثـة الغربية.

2-العقل الأداتي بوصفه شرا ؟

لقد كان التنوير لدى فلاسفة مدرسة فرانكفورت يمثل مشروعاً للتحرر الإنساني، ويقوم هذا المشروع على العقلانية للتخلص من مختلف أشكال الهيمنة والسيطرة التي عرفها الإنسان، غير أنه في سياق التطور التاريخي الذي عرفته المجتمعات الأوربية اتضح أنّ هذا المشروع أبعد من تحقيق التحرير الإنساني المنشود ،بل على العكس من ذلك تماماً ، كرّس أشكالاً جديدة من العبودية ولكن في هذه المرة تتم باسم العقلانية فمشروع التنوير حتى وإن ادعى تحرير المجتمعات (الغربية على وجه الخصوص) من وضع السيطرة، فإنه في نهاية الأمر قد أصابته انتكاسة، وتحول إلى مشروع غير إنساني. وهذا ما أشار إليه هوركهايمر وأدورنو في جدل التنوير بقولهما:" كيف أنّ الإنسانية التي بدل أن تلتزم بشروط إنسانية حقة، سرعان ما راحت تغرق في شكل جديد من أشكال البربرية ؟ [1]. وكيف أنّ التنوير الذي كان في البداية- أي في تلك اللحظة التأسيسية- تعبيرا عن فكرة الحرية الإنسانية، سرعان ما تحوّل إلى أسطورة تخفي السيطرة أو الهيمنة ؟ أو بعبارة أخرى كيف نفسّر تدمير العقل التنويري لنفسه، بحيث أصبحت الإنسانيةُ تخوض في حالة جديدة من البربرية بدل أن تصل إلى حالة إنسانية حقيقية ؟ يجيب هوركهايمر وأدورنو بأنّ ذلك قد تم عندما تحوّل العقل إلى أداة للسيطرة على الطبيعة ثم على الإنسان. والمقصود بالعقل الأداتي أو التقني هو العقل القائم على التكميم والقياس والفاعلية والموجّه نحو ما هو عملي ونفعي.

لقد تبلور هذا العقل الأداتي حسب هوركهايمر وأدورنو مع الثورة العلمية الحديثة التي عرفتها أوربا في الأزمنة الحديثة، وخاصة بعد ظهور الفكر الوضعي

[1] ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو. **جدل التنوير**، ص13.

في القرن التاسع عشر الذي اتخذ، كما يقول هوركهايمر وأدورنو، صفة " العقل المتنوّر" وعدّ كل رحلة في العوالم العقلية ليست محرمة وحسب بل محض ثرثرة لا معنى لها[1].

هذا، وقد اختزلت النزعة الوضعية العقل وحدّدت دوره أو وظيفته فيما يلي:

1. معرفة ما هو معطى بوصفه كذلك، ونادت بالوقوف عند حد ملاحظة الوقائع وتصنيفها، والقيام بالتجريب وفق المقولات الكمية والصيغ المنطقية قصد الوصول إلى اكتشاف القوانين والتنبؤ بحدوث الظواهر حتى يتم التحكم فيها.

2. القول بأنّ الرياضيات جهاز مفاهيمي Appareil conceptuel أو نسق يمكن أن يفسّر الوقائع، إلى درجة أن كل ما لا يتطابق مع معايير الحساب والكم لا يُعد من المجال العلمي الموضوعي. وعلى هذا الأساس تم استبعاد أو إقصاء القيم الدينية والجمالية والأخلاقية والفلسفية التي اعُتبرت ميتافيزيقية أو غير علمية، ولا علاقة لها بالمعرفة العلمية والتقنية. وبهذا،تم تقديم العقل الأداتي (التقني) وكأنه هو النموذج الأوحد للمعرفة أو الحقيقة.

لقد كان لهذه النظرة الاختزالية للعقل نتيجتها الحتمية المتمثلة في سعيه الحثيث للسيطرة على كل شيء بما في ذلك الإنسان نفسه، لكن هذا الأخير الذي أصبح مهددا بل خاضعا لما أسماه الفيلسوف المجري غيورغ لوكاش Georges Lukacs بالتشيؤ في كتابه الموسوم بـ التاريخ والوعي الطبقي، وهذا ما أشار إليه هوركهايمر وأدورنو بقولهما: "فمع تشيؤ العقل تصبح العلاقات بين الناس وعلاقة الإنسان بذاته بمثابة علاقات مسعورة. إنّ الفرد الذابل يصبح نقطة التقاء ردات الفعل والسلوكيات الانتقائية المنتظرة منه عمليا.أعطت الإحيائية روحا للشيء، أما الانتماء للصناعة فقد روح الإنسان إلى شيء[2].

لقد نجح العقل الأداتي—حسب هوركهايمر وأدورنو– في تشييئ الإنسان واستخدامه من قبل المؤسسات الاقتصادية والسياسية وأجهزتها الاديولوجية القائمة على تكريس المصلحة والهيمنة بصورها المختلفة.غير أنّ هذه العقل عندما

---

[1] ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو. **جدل التنوير** ، ص 47.

[2] المصدر نفسه، ص 50.

تم توظيفه بهذا الشكل السلبي اللاإنساني، كرّس في آخر المطاف اغتراب الذات الإنسانية.

وهذا ما حدث للمجتمعات الغربية التي عرفت تقدما علميا وتقنيّا كبيرا وحققت قفزات جد معتبرة في عمليتي التحديث والعقلنة Rationalisation، لكنها وقعت في آخر المطاف فريسة النازية والفاشية والستالينية التي بلغت أوجها ووصلت إلى قمة طغيانها في الفترة التي كتب فيها جدل التنوير أي أثناء الحرب العالمية الثانية وما عرفته أوربا من مأساة وعنف شامل وبربرية، لكن هذه البربرية لم تكن نتيجة رفض للعقلنة ومُثلها، أو عن نزعة عملت على "تحطيم" العقل، وإنما كانت في الواقع مندرجة في تاريخ العقل نفسه الذي أخذ طابعا أداتيا. وبالتالي ليس مصدر الشرّ خارجيا بل الأحرى أنه محايث للعقل نفسه[1]. لذلك راح مفكرو مدرسة فرانكفورت يتشككون في العقل ذاته، أو على الأقل في العقل كما عرفه التراث الغربي؛ فلقد بدا لهم في كل مجال من المجالات أنّ العقل لم يعد سوى وجهه الأداتي، مُظهرا رغبة مهووسة في السيطرة على الطبيعة، خاصة الطبيعة البشرية. فالموضوعة الأساسية في كتاب هوركهايمر وأدورنو جدل التنوير – كما أشرنا إلى ذلك سابقا– هي أنّ كل قدر من التقدم البشري ليس، بفضل التوجّه الأداتي، سوى قدر من القمع، مما يقتضي درجات متعاظمة أبد من التلاعب، بالآخرين وبالذات على حد سواء[2].

إنّ الأزمة الحقيقية للعقل تكمن إذن في عملية اختزال العقل في هذا الطابع الأداتي (أو الذاتي) وفي استبعاد العقل الموضوعي الذي حرص الفكر الفلسفي منذ القدم على أهميته الحقة في إدراك المعاني الكلية والقيم الإنسانية كالعدالة والتسامح والحرية، ولكن العقل الذي أخذ طابعا أداتيا انصرف عن القيم الأساسية والقضايا الكبرى والكلية المتعلقة بما يمكن أن تكون عليه حياة البشر وراح يقصر اهتمامه على البُعد الأداتي وحسب. وبعبارة أخرى، حينما يتخلى العقل عن المضامين

---

[1] François-Xavier chenet, « L'instrumentalisation de la raison » in *Max Horkheimer, Theodor Adorno et la Dialektik der Aufklärung* (dir) Jean Marie Paul. Centre de recherches Germaniques et Scandinaves de l'université e Nancy 2, 1996, p 37.

[2] آلن هاو، **النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت)**، ص 72.

الموضوعية ويستبعد الغايات الكلية يتحوّل هذا العقل نفسه إلى أداة تخدم غايات لا يحددها بنفسه، وعوض أن يكون قدرة على تصور نظام موضوعي، وبالتالي يلعب دورا في تقدم الإنسان وفي توجيه العملية الاجتماعية فإنه على العكس من ذلك يتحوّل إلى مجرد خادم له لا غير[1].

وقد ترتب على ذلك أنّ العقل عندما تم استخدامه هذا الاستخدام الأداتي ووُجه نحو النفعية والفاعلية العملية والإنتاجية وأفرغ من جميع القيم العليا والأسئلة الكبرى عن الحرية والعدالة والكرامة والحقيقة، كرس بذلك التشيؤ والاستلاب والشرّ بمختلف أشكاله، بل وتُرجم هذا العقل نفسه إلى نظم فاشية ونازية شمولية أو توتاليتارية وبذلك تحولت الدولة " إلى نظام شامل للقمع والقوة والسيطرة، فعرضت الإنسان إلى أشكال مختلفة من القهر الظاهر والباطن، والقمع الواعي وغير الواعي الذي ينطلق من أجهزة الإنتاج الضخمة، والمؤسسات الإدارية والبيروقراطية والاستهلاكية والإعلامية التي تشبه آلات هائلة يحاول الناس أن يكيفوا أنفسهم مع ضغوطها ومطالبها"[2].

لذا، انتقد مفكرو مدرسة فرانكفورت العقل الأداتي وذهبوا إلى القول بأنه عقل قاصر بل ومضلّل لأنه يحجب عنا الفهم الصحيح لطبيعة الحياة الاجتماعية، ويقدم تفسيرا مشوها للواقع، وبقدر ما تنمو المعرفة العلمية –التي أخذت طابعا أداتيا– بقدر ما يجد الإنسان أن آفاق حريته وسعادته تتقلص وكذلك استقلاله الذاتي باعتباره فردا، بل إن قدرته على التخيل والحكم المستقل يتناقص أيضا. لهذا السبب انشغلوا كثيرا بمصير الإنسان الغربي المعاصر الذي تقلصت مساحات حريته كما قلنا،وذلك على الرغم أنه يعيش اليوم في مجتمعات جعلت الحرية والسعادة والتقدم شعارا لها،غير أن في حقيقة الأمر هناك قهر يمارس عليه بصور أشكال مختلفة داخل المؤسسات السياسية والإدارية والاقتصادية وفي مقدمتها –كما أشرنا إلى ذلك سابقا– مؤسسة الدولة التي أصبحت في زماننا هذا تستند إلى المعرفة العلمية والتقنية وإلى الخبراء المختصين في مختلف المجالات (الاقتصادية،

---

[1] François-Xavier chenet, « L'instrumentalisation de la raison » in *Max Horkheimer, Theodor Adorno et la Dialektik der Aufklärung*, op .cit., p 42.

[2] عبد الغفار مكاوي " **النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت** " *حوليات كلية الآداب*، الكويت، السنة 1992 العدد 13، ص 18.

الإدارية، الثقافية، الخ.)، والتي أدت في آخر المطاف إلى ما يسميه أدورنو بالتنميط التكنولوجي والتنظيمي، بغض النظر عن لاعقلانية هذا التنميط[1]، وقد بلغت في ذلك حدودها القصوى حسب مفكري مدرسة فرانكفورت في النظم الشمولية أو التوتاليتارية، التي بلغت أوجّها بعد صعود النازية وما حل بأوربا في تلك الفترة التاريخية المأساوية من تاريخ الحضارة الغربية وما عرفته من وحشية وبربرية، فتحول التقدم إلى انتكاسة وتراجع خطير أصبح يهدد مصير هذه الحضارة لأنّ هذه الوحشية أو البربرية التي تجلت في مأساة الحرب العالمية الثانية، وما خلفته هذه الحرب من ضحايا لم تكن ذات طابع تقليدي وإنما استندت بالأحرى على المعرفة العلمية والتكنولوجية المتاحة في تلك الفترة التاريخية، ويظهر ذلك في طبيعة الأسلحة والعتاد والوسائل الحربية التي استخدمت من طرف الدول المتحاربة ،وخاصة ألمانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، أي تلك الدول المتقدمة تكنولوجيا. في هذا السياق يمكننا أن نفهم كيف وطدت السنوات الأكثر ظلمة في الحرب العالمية الثانية الاعتقاد بأنّ الشرارة الأخيرة للعقل هربت من الواقع، ولم تبق إلا على أنقاض حضارة على حافة الدمار بلا أمل يُرتجى[2].

هذا، وقد أصبحت السيطرة التي تمارسها العقلانية الأداتية على الإنسان اليوم أخطر وأشمل من السيطرة التي عرفها في الماضي، لأنها شملت عقله وعواطفه ورغباته وغرائزه وجسده، وهذا عندما أصبح خاضعا لوسائل الدعاية والإشهار والإعلام التي تعمل على ترويضه واختزاله في البعد الاستهلاكي، فأصبح كما يقول هربرت ماركوز فاقدا لأبعاده ولم يعد يتقوّم إلا ببعد واحد هو البعد الاستهلاكي، وذلك لأن العقلانية الأداتية أو التكنولوجية كما يسميها أصبحت تفرز أشكالا جديدة من الوسائل والطرق والآليات القمعية التي تسحق الإنسان كليا وتحرمه من حريته واستقلاله الذاتي، وتحاول إقناعه بالحرية المزيفة، وهي بذلك تختزله في البعد الاستهلاكي الذي يحوّل الوجود الإنساني برمته إلى وضع بائس، وهذا ما

---

[1] Theodor Adorno , *Société : Intégration, Désintégration. Ecrits Sociologiques*. Traduit par Pierre Arnoux, Julien Christ, Georges Felten, Florian Nicodème, Payot, 2011, p 102.

[2] يورغن هابرماس، **القول الفلسفي للحداثة** ، ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995، ص 186 .

أكده في كتابه النظرية النقدية للمجتمع بقوله " يعيش الأفراد في المجتمع حيث يخضعون فيه لجهاز يشمل الإنتاج والتوزيع والاستهلاك-المادي والفكري- فالعمل والتسلية والترفيه توجه حياتهم اليومية بل حتى حاجاتهم وما يتوقف عليه حياتهم، وهذه الحياة الاجتماعية والفكرية مندمجة في عالم تاريخي خاص[1]. ويعني هذا أنّ هذه العقلنة نفسها تحوّلت إلى لاعقلانية، أو بتعبير هوركهايمر وأدورنو تحوّل العقل إلى أسطورة. ولكن كيف تم هذا التحول ؟

يدعونا هوركهايمر وأدورنو عبر جدل التنوير إلى الوقوف على الأزمة التي أصبحت تعرفها الحضارة الغربية منذ بدايتها الأولى، ومن مظاهر هذه الأزمة التي عرفتها هذه الحضارة ما يمكن أن نسميه جدلية التنوير والأسطورة أو العقل واللاعقل، فالعقل الذي رفض الأسطورة وعمل على اجتثاث أسسها وبنيتها وكان ضدا لها تحوّل بدوره إلى أسطورة.

إنّ العقلانية التي تحمست لها فلسفة الأنوار ودعت إليها كانت تهدف إلى عقلنة العالم وتحرير الإنسان من الأوهام والخرافات التي استعبدته وكبلت إرادته وحرمته من حريته، غير أنها أخذت بعد ذلك طابعا لا عقلانيا في سياق التطور التاريخي الذي عرفته المجتمعات المتقدمة صناعيا، ونتج عن ذلك ما يسميه هوركهايمر بـ "خسوف" أو " أفول العقل" (Eclipse de la raison) وارتد التنوير،فأصبحنا نشهد عودة الأسطورة من جديد في عصرنا هذا. ويمكن أن نوضح هذه المسألة كالتالي:

يمكننا القول بأنّ الأسطورة في زماننا هي شكل من أشكال التعقل الإنساني للظواهر الطبيعية، وفيها حاول الإنسان التخلص من سيطرة الطبيعة وقهرها، ومن تلك الظروف الطبيعية القاسية التي عاشها الإنسان ولهذا فإنه عمل عن طريق الأسطورة على إعادة صياغة الطبيعة وتفسيرها حسب ما يراه ويتصوره، ولكن "بمصطلحات" غير واقعية، أي بما هو رمزي ، وفي نظر هوركهايمر وأدورنو تعتبر أسطورة الأوديسا (Odyssée) للشاعر اليوناني هوميروس غنية بأمثلة ونماذج ورموز توضح فكرة السيطرة على الطبيعة، وذلك من خلال شخصية أوليس الذي

---

[1] Herbert Marcuse, Pour une théorie critique de la société. Traduit par Cornelius Haïm, Paris, éditions Denoël, 1971, p 192.

يعتبر مثال أو نموذج الإنسان الذي يسعى ويعمل على السيطرة على الطبيعة[1]، والتغلب على قهرها، في حين تعمل هذه الأخيرة من جهتها على الانتقام منه، لتخضعه إلى سيطرتها. غير أنّ ما يلاحظ – في هذا السياق– أن فلسفة الأنوار قد تعاملت مع الأسطورة التي قامت على فكرة السيطرة على الطبيعة، باستيعابها ودمجها في بنيتها المفاهيمية، فكانت فكرة السيطرة هذه ثابتا من ثوابتها الفكرية، في حين كان من المفروض تحليلها ونقدها ومن ثمة بقيت العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وهي علاقة صراع، قائمة في بنية الفكر التنويري الذي شكل أساسا للمشروع الفلسفي الغربي، كما قلنا سابقا، والذي انعكس سلبا على حياة البشر.

هكذا تنكشف أزمة العقل عن طابعه التقني– الأداتي وعن نزوعه الشمولي والاستبدادي، وقد ترتبت هذه الأزمة أساسا عن انفصاله عن الطبيعة. لم تفارقه اللعنة منذ انفصاله الأول عن جذوره الطبيعية وهي اللعنة التي لن يشفى منها سوى إذا التأم بالطبيعة من جديد. فهو لا يزال يعْمهُ في ضلاله حتى في أقصى أشكال وأنظمة الحداثة تطورا، ولا يزال يرزح تحت وطأة القوى التي اعتقد أنه تخلص منها إلى غير رجعة. يمكن الحديث إذًا عن تشويهات عميقة أصابت العقل، حادت به عن مساره التحرّري وتركته يقبع في أتون الهيمنة والقمع[2]. وقد نتج عن ذلك– حسب هوركهايمر وأدورنو– أنّ اللحظتين الأساسيتين في تكوين ميراث العقلانية أو الحداثة الغربية وهما: قيمة ومكانة الشخص المستقل بذاته والحر، أو ما يسميه ماكس فيبر Max Weber بنزع الطابع السحري عن العالم Le désenchantement du monde أصبح من المستحيل الجمع بينهما في وحدة متكاملة، وأنّ وعود التنوير بتحرير الإنسان من جميع السلطات المتحكمة فيه والمهيمنة عليه لم يعد من الممكن تحقيقه في ظل العقلانية ولاسيما أنّ هذه العقلانية أصبحت اليوم أداتية[3].

---

[1] ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو._**جدل التنوير**، ص 92.

[2] عبد العالي معزوز، **جماليات الحداثة**. أدورنو ومدرسة فرانكفورت، بيروت، منتدى المعارف، 2011. ص 158.

[3] Seyla Benhabib, « Renverser la dialectique de la raison: Le réechantement du monde » in *où en est la théorie critique* ? Sous la dir Emmanuel Renault et Yves Sintomer Paris, La découverte 2003, p 79.

لقد تولدت عن جدلية التنوير والأسطورة أو العقل واللاعقل بعض التناقضات، أهمها نذكر التصادم بين الموقف الذي يجعل العقل مرادفا للتقدم والموقف المناقض له الذي يعتبر العقل متماهيا مع الانحطاط أو التراجع. فالعقل عند هوركهايمر وأدورنو هو بالمعنى الواسع " تعبير عن فكرة التقدم، وهدفه تحرير الإنسان من الخوف وجعله سيدا"[1]، مما يعني أنّ التقدم لا يمكن تحقيقه وتجسيده في أرض الواقع إلا عن طريق التخلي عن الخرافات والالتزام المبدئي بالعقلنة، غير أنه في الوقت الذي أكد فيه التنوير على أن التقدم الإنساني لا يمكن تحقيقه إلا بالمزيد من العقلانية ومن خلال الثورة المعرفية والعلمية، فإنّ ذلك لم يتحقق فعلا على أرض الواقع، بقدر ما تحقق نقيضه أي الأساطير الجديدة المتمثلة بصورة خاصة في البربرية. ولقد كان المثال الأكثر وحشية لذلك، والذي تأثر به هوركهايمر وأدورنو وباقي أعضاء مدرسة فرانكفورت أشد التأثير هو النازية. وفي هذا الصدد تمت الإشارة إلى هذه الحركة أو الدولة الشمولية (أو الكليانية) Totalitaire باعتبارها الحالة النموذجية للبربرية والأسطورة التي عرفها المجتمع الألماني الذي وصل إلى ذروة الترشيد والضبط والتقنين والعقلنة وفق المواصفات والمعايير التي يتبعها الفلاسفة وعلماء الاجتماع، ولكنه وقع للمفارقة صريع النازية والفاشية، مما يقدم الدليل على أنّ هذا المجتمع على الرغم من تقدمه تقنيا قد ترك الحبل على الغارب ليقع فريسة اللاعقل الكامن في العقل ذاته، للتحكم فيه نظرة عنصرية متوحشة تهذي بأسطورة عصابية، تقول بأنّ الجنس الآري أحسن الأجناس وأفضلها[2].

هذا، وتجدر الإشارة إلى أنّ الدولة — بحسب مفكري مدرسة فرانكفورت— تكون تسلطية وشمولية بصرف النظر عما إذا كان المجتمع رأسماليا أو اشتراكيا، دكتاتوريا أو ديمقراطيا. ومهما تعددت صور وأشكال النظم الاقتصادية والسياسية القائمة حاليا فإنّ جوهرها واحد، يتمثل في منطق السيطرة الذي يوجه ضد الإنسان، وحتى تلك النظم السياسية الشمولية التي عرفتها أوربا (ألمانيا وإيطاليا

---

[1] ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو. **جدل التنوير**، ص24.

[2] حسن مصدق، **يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت.النظرية النقدية التواصلية**، بيروت، المركز الثقافي العربي، 2005 . ص57.

تحديدا) في بداية الثلاثينات من القرن العشرين، والمتمثلة في الفاشية le fascisme والنازية le nazisme تعتبر إذن من هذا المنظور النمو الطبيعي للديمقراطية الليبرالية ونتاجا لها، وبالتالي فهي لا تنفصل عن مشروع العقل الأداتي. لذلك توجب البحث في طبقات هذا العقل عن مناطق معتمة هي وجهه اللامعقول وبربريته الدفينة، والدليل المرئي والجلي على اللامعقولية القابعة في غياهب العقل هو إقدام أنظمة فاشية على تخطيط وتنفيذ جرائم إنسانية وهي أنظمة محكمة بكل شبكاتها البيروقراطية ونظمها اللائكية ودوغمائيتها العرقية، أي أنها أنظمة ذات عقل موجه ومنظم (أو عقل ذرائعي وتقنوقراطي) لأهداف إعدامية وعدمية من فرط امتلائها القيمي والرمزي وسطوتها التقنية والمادية[1].

من هنا جاءت نظرة مفكري النظرية النقدية إلى العقل والمعرفة العلمية والتقنية على أنها أداة تحرّر الإنسان وانعتاقه وفي الوقت نفسه هي أداة سلب حريته ومصدر شقائه وشروره. لذا، وانطلاقا من مشكلة الشرّ القائم، أعادا النظر في نشاط العقل نفسه لأنّ هذه الشرور والجرائم البشعة المرتكبة بصورة منظمة وممنهجة باسم العقلانية تدفعنا إلى التساؤل العميق عن نشاط العقل نفسه[2]. غير أنّ النقد الموجه للعقلانية والمعرفة العلمية في صورتها الحالية لا يعني أنّهما (هوركهايمر وأدورنو) ضد العقل والعلم والتنوير ذاته وإنما هو نقد موجه في الأساس للانحراف الذي عرفه التنوير عبر مسار التطور التاريخي الذي عرفته الحضارة الغربية، وكيف تم التراجع عن قيمه المؤسِسة، أي العقل والحرية والتقدم الإنساني. فتحوّلت العقلانية إلى اللاعقلانية. لهذا السبب كان من الطبيعي أن يتوجه التركيز إلى نقد العقلانية الأداتية قصد الكشف عن فظاعتها في المجتمعات المعصرة.

هذا، ولقد انشغلت مدرسة فرانكفورت كثيرا بمصير الفرد في ظل العقلانية التي ارتبطت بمشروع السيطرة السياسية ، ذلك أننا لاحظنا أن العقلانية الأداتية هي

---

[1] محمد شوقي الزين، الذات والآخر. تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، منشورات الاختلاف (الجزائر) ومنشورات ضفاف (بيروت) 2012، ص 34.

[2] Géraldine Muhlmann « Pensée et non pensée selon Hannah Arendt et Theodor Adorno. Réflexions sur la question du mal » in *L'école de francfort : la théorie critique entre philosophie et sociologie*, Paris, éditions kimé 2002.

عقلانية السيطرة على الطبيعة والإنسان معا، وهذا ما يتم اليوم، في المجتمعات المتقدمة صناعيا، بواسطة المؤسسات السياسية وعلى رأسها الدولة، بحيث أن "في شكلها الأداتي، امتزجت أخيرا العقلانية مع السلطة، متخلية عن قوتها النقدية"[1]، على اعتبار أن الدولة الحديثة أصبحت تستند إلى المعرفة العلمية والتقنية في تسيير شؤونها، ومن هنا ذلك التلازم الوثيق بين العقلانية وما نتج عنها من تقدم علمي وتقني، أصبحت في السياق التاريخي الحالي ترسخ في حقيقة الأمر سيطرة المؤسسات المنظمة للمجتمع، وعلى رأسها السلطة السياسية، كائنا ما كان مظهرها ومصدرها، بحيث أصبحت المجتمعات المعاصرة تعرف تلازما بين هذه السلطة والمعرفة. أو بعبارة أخرى ارتبطت السلطة السياسية ومؤسساتها الاقتصادية والعسكرية والإدارية بالمعرفة العلمية، فأصبحت تنتج السيطرة بقوة أكثر من السابق، بمعنى أننا أصبحنا أمام سيطرة جديدة، لكنها أعمق وأخطر على الإنسان، لأنّ هذه السلطة السياسية تحولت إلى نظام شامل للقمع والقوة والسيطرة، بحيث عرّضت الإنسان لأشكال مختلفة من القهر الظاهر والباطن، والقمع الواعي الذي ينطلق من أجهزة الإنتاج الضخمة، والمؤسسات الإدارية والبيروقراطية الاستهلاكية والإعلامية، التي تشبه آلات هائلة، يحاول الناس أن يكيفوا أنفسهم مع ضغوطها ومطالبها ويضطرون في سبيل ذلك إلى قمع طبيعتهم. بل يبلغ بهم الأمر في كثير من الأحيان إلى عدم الإحساس بالقمع الذي تمارسه عليهم تلك الأجهزة التقنية المخيفة، التي تتحكم في حياتهم الخاصة فتشكل دوافعهم، وتوحد أنماط سلوكهم بل وتخلق فيهم حاجات مادية وروحية زائفة[2].

لقد وجّه مفكرو مدرسة فرانكفورت انتقاداتهم الحادة لكل النظم واعتبروها شمولية وديكتاتورية سواء كانت أو ديمقراطية، ليبرالية أو اشتراكية[3]، وهي أنظمة

---

[1] Jürgen Habermas. *le Discours philosophique de la modernité*. P.143

[2] عبد الغفار مكاوي. " **النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت. تمهيد وتعقيب نقدي** ". حوليات كلية الآداب رقم 13، السنة 1993، ص17.

[3] من الجدير بالملاحظة أنّ مدرسة فرانكفورت في نقدها للاشتراكية تحرص على التأكيد أنها لا تنتقد الاشتراكية في ذاتها وإنما تنتقد شكلا من أشكالها المتمثلة في التجربة الاشتراكية السوفيتية التي انحرفت عن الأفكار الأصيلة لكارل ماركس. لمزيد من التفصيل في هذه المسألة أنظر:

Herbert Marcuse, Le Marxisme soviétique. Essai d'analyse critique. Traduction de Bernard cases Paris, Edition Gallimard ,1963.

استندت كما قلنا سابقا، على النموذج العقلاني الأداتي. غير أن هذه المسألة تطرح تساؤلات على المستوى الإنساني، وبالتحديد وضع الفرد ومصيره داخل هذه المؤسسات، التي لم تعد تنفصل عن مختلف أشكال السيطرة. لهذا انشغلت مدرسة فرانكفورت كثيرا بمصير الفرد في ظل هذه المؤسسات القمعية، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ،حيث لا يخفى علينا مدى تأثرها بأحداث الحرب ومخلفاتها على الفرد[1]. ولهذا عملت على فضح أشكال السيطرة الجديدة ووسائلها داخل المجتمعات المعاصرة، سواء كانت رأسمالية أم اشتراكية. وعلى الرغم من الاختلاف القائم بينهما في الأسس والمنطلقات،فإنهما يتفقان ضمنيا في الهدف، المتمثل في محاصرة الفرد وقمعه وقهره إلى حد اثبت الشرّ الجذري سلطته على العالم بل وعلى كل الخلق على نحو غير مسبوق[2] وإذا كانت الرأسمالية قد نادت بحرية الفرد وإمكانية تحقيق استقلاله الذاتي وانتعاشه اقتصاديا وسياسيا، فقد تبيّن في آخر المطاف أنّ هذه الحرية المزعومة هي مجرد وهم وزيف، لأنّ الفرد يخضع في حقيقة الأمر إلى السيطرة ويعاني لا محالة من الاغتراب والتشيؤ.

هذا، ويعتقد هوركهايمر وأدورنو أنّ غلبة أو انتصار العقل الأداتي كان في حقيقة الأمر نتيجة لفكرة الصراع من أجل السيطرة على الطبيعة. لذا، فقد تميزت الحضارة الغربية منذ نشأتها الأولى بفكرة السيطرة من خلال معنيين متكاملين؛ أولهما السيطرة على الطبيعة وثانيهما السيطرة على الإنسان. ويمكن أن نجد بينهما ترابطا أساسيا وتاريخيا، وذلك لأنّ عملية السيطرة على الطبيعة واستغلالها تتم عن طريق توظيف المعارف العلمية الإمبريقية والتطبيقات التقنية باعتبارها أدوات ووسائل أو آليات يمكن توجيهها لما يخدم أهداف السيطرة الشاملة على الطبيعة والإنسان في آن واحد. ضمن هذا السياق يقول هوركهايمر في كتابه أفول العقل " حينما نتكلم عن المرض الذي أصاب العقل، كان من اللازم أن نفهم أن هذا المرض لم يصب العقل في لحظة تاريخية معينة، بل هو غير منفصل عن طبيعة العقل في الحضارة [...] فالعقل نشأ من نزعة اندفاعية في الإنسان للسيطرة

---

[1] Jean-Marie Vincent .la Théorie critique de l'Ecole de Francfort. Paris, Editions Galilée, 1976. P 100.

[2] Max Horkheimer, *Notes critiques*. Traduit par Sabine Cornille et Philippe Ivernil , Paris, Payot, 1993,p 128.

على الطبيعة[1] والحال، أنّ هذا العقل، في كنف الافتراضات الإمبريقية، انصرف عن القضايا الكبيرة والكلية المتعلقة بما يمكن أن تكون عليه الحرية والعدالة، وراح يقصر اهتمامه على ما يمكن أن يفعله بما هو موجود أصلا: الوقائع. وكلّ من يتكلم عن أنّ مثل هذه الوقائع الكبيرة يمكن أن تنطوي على أفكار صار يُنبذُ بوصفه إيديولوجيا، أو ميتافيزيقا، أو ذاتيا خالصا ليس غير.

أما المهمة التي استعدّ لها العقل آنئذٍ فكانت أن يغدو أداة للتعامل مع الوقائع، ضربا من البراعة في قياس ما هو ملائم وعملي تقنيا وحسب. فمن خلال تشغيل العقل يبتعد الناس عن الطبيعة ليجعلوها إذا القول أمام أنظارهم ليروا في نهاية الأمر كيفية السيطرة عليها، بما بشبه الشيء، أو بما يشبه الأداة، والذي يبقى في شتى الظروف هو نفسه قاسما العالم، المعقد والمختلف وما هو معروف وواحد ومتماه، كذلك هو المفهوم الأداة، المثالية التي تسمح بالإلمام بكل الأشياء من الطرف الذي يسمح بالإمساك به. وهكذا يصبح الفكر المحض وهما في كل مرة يحاول إعادة نفي وظيفته في القسمة واتخاذ المسافة، مع احتفاظ العقل بالكلمة الأخيرة تجاه كل يتوبيا مؤقنمة فارضا السيطرة تحت شكل الانقسام، تصبح القطيعة بين الذات والموضوع الذي يمنع إبرازها علامة على لا حقيقة هذه القطيعة وعلى الحقيقة. إنّ إدانة الوهم قد ظلت على الدوام إشارة إلى تقدم السيطرة وتعرية لها في آن واحد. إنّ العقل ليس عقلا فقط، إنه الطبيعة وقد صارت معقولة في غربتها عن ذاتها[2].

ينطلق مفكرو مدرسة فرانكفورت—كما أشار إلى ذلك أكسل هونيث– من القول بأنّ الوضع السلبي الذي تمر به المجتمعات المعاصرة اليوم مرده إلى القصور والعجز الذي أصاب العقل نفسه، ولذلك فهم يفترضون وجود نوع من الترابط بين العلاقات الباثولوجية (المَرضية) التي تعيشها هذه المجتمعات ونمط تشكيل هذه العقل، وهذا هو سر اهتمامهم بالمسار التاريخي الذي تتحقق فيه العقلنة(الأداتية). لذا، فإنّ كل

---

[1] Max Horkheimer, *Eclipse de la Raison*. Traduction de Jacques debouzy, Paris, Payot 1974 p.182.

[2] ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو، **جدل التنوير**، ص 62.

محاولة لاسترجاع حيوية التقليد الفكري للنظرية النقدية في وقتنا الحالي يجب أن يكون منطلقه تحيين هذه العلاقة التصوّرية، والتي تأسست على فكرة أخلاقية تمتد جذورها–حسب هونيث– إلى فلسفة هيغل"[1].

يبدو من خلال ما تقدم، أنّ هوركهايمر وأدورنو قد أفلحا في نقد التنوير وعقلانيته التي أخذت طابعا أداتيا، ولهذا وجدنا أن مختلف نصوص جدل التنـوير قد انصبت على إظهار التأثير العميق الذي مارسته العقلنة الأداتية على مسار الحضارة الغربية، حيث أصبحت تمثل تسلطا على الطبيـعة والإنسان بطريقة علمية ومنهجية.

لقد أخذ هذا النقد طابعا أكثر راديكالية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين لدى أدورنو، وهذا ما يظهر بجلاء في كتابات هذا الأخير.ضمن هذا السياق يمكن أن نذكر منها على وجه الخصوص مُؤلفين هامين ظهرا في هذه الحقبة التاريخية[2] وهما: أخلاق الحد الأدنى Minima Moralia الصادر عام 1951، وهو الكتاب الذي صرّح فيه أدورنو بعدم إمكانية صياغة فلسفة اجتماعية شاملة تضم مختلف تخصصات العلوم الاجتماعية، ثم الجدل السلبي Dialectique negative الذي أظهر فيه أدورنو "نقدا كاسحا لعلاقة الهيمنة القائمة بين الذات والموضوع مواصلا هجومه على ما كان قد دعاه مع هوركهايمر في جدل التنوير بـ "الهيمنة في الفكر نفسه".

هكذا، سيركز الجدل السلبي على فكرة التشيؤ في تحليله لبنية الثقافة في المجتمعات التقنية ما بعد الصناعية عالية الإدارة التي تذوب فيها الذات كليًّا في

---

[1] Axel Honneth, *La société du mépris. Vers une nouvelle théorie critique*. Traduit de l'Allemand par Olivier Voirol, Pierre Rusch et Alexandre Dupeyrix, Paris, La Découverte, 2006, p104.

[2] لمزيد من التفصيل فيما يخص هذه المسألة الهامة انظر:

Theodor Adorno, *Dialectique négative*. Traduit de l'allemand par: Gérard Coffin, Joëlle Masson, Olivier Masson, Alain Renault et Dagmar Trousson, édition Petite Bibliothèque Payot, Paris, 2003.

Theodor Adorno, *Minima Moralia. Réflexions sur la vie mutilée*, traduction par Eliane Kaufholz et Jean-René Ladmiral, Paris, éditions Payot, 1991.

الموضوع وتستغرق بكليتها بحيث يُستلب الوعي نهائيا ويصبح غير قادر أبدا على أن يقيم مسافةً تأملية تسمح له بتقييم الموضوع ونقده. في هذه المجتمعاًت ما بعد صناعية ذات الضبط الإداري العالي يُخنق الوعي النقدي كليا وتُبتلع الذات في الموضوع برمته"[1]. لذلك لم يعد من الممكن حسب أدورنو إعادة صياغة البرنامج الأول في فترة الثلاثينيات، الذي قام على ربط المعرفة النظرية بجملة التخصصات المتعددة طالما أنّ العقلانية الأداتية ارتبطت بمشروع السيطرة الكلية على الطبيعة والإنسان، وبالتالي تحقق انسداد أفق التغيير الممكن للواقع القائم نحو قيم الحرية والسعادة والعدالة، وفشل مشروع تحقيق مجتمع إنساني وعقلاني متحرّر من كل أشكال الهيمنة.

وهكذا، نستطيع القول بأنّ السبب الأساسي للشر الموجود في العالم، في زمننا هذا، هو إرادة السيطرة أو الهيمنة وتوجه العقل(الأداتي) نحو التحكم في كل شيء (الطبيعة والإنسان). لقد وصل مفكرو مدرسة فرانكفورت –كما أشرنا إلى ذلك سابقا– من خلال تجربة النازية والإبادة الجماعية والجرائم المرتكبة ضد الإنسانية وتراجيدية التاريخ المعاصر إلى نتيجة مؤداها أنّ ذلك لم يكن من الممكن أن يحدث لولا إرادة السيطرة التي ميّزت العقل الأداتي.

لكن وعلى الرغم من هذا النقد الجذري إلا أنهم فقدوا الأمل في تغيير الوضع المأسوي الذي يعيشه البشر وتحقيق التحرّر المنشود، وما يؤكد هذا المعنى ما قاله هوركهايمر وأدورنو في جدل التنوير " ولكون التاريخ دون علاقة مباشرة مع نظرية موحدة، كشيء يمكن بناؤه، ليس الخير، بل الرعب، فإنّ الفكر يصبح واقعا عنصرا سلبيا. إنّ الأمل بتعديل الشروط، وبقدر ما لا يكون إلا مجرد وهم، إنما هو أمل يتأسس بشكل أقل على الأمان الذي يضمن هذه الشروط الثابتة والنهائية. منه على قلة احترام ما هو مبين بشكل وثيق في الألم العام"[2].

---

[1] خلدون النبواني، " حضور فكر أدورنو في كلٍ من نظرية السلطة عند ميشيل فوكو وفلسفة التفكيك عند جاك دريدا" من كتاب **ثيودور أدورنو، من النقد إلى الاستطيقا**. إشراف وتقديم كمال بومنير. دار الاختلاف الجزائر، ودار الآمان، الرباط، 2011، ص 61.

[2] ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو. **جدل التنوير**، ص 268.

3-من العقل الأداتي بوصفه شرا إلى العقل التواصلي الإنساني:

ردا على هذه الانتقادات الجذرية الموجهة ضد العقل والعقلنة والحداثة والموقف التشاؤمي اليائس لرواد مدرسة فرانكفورت الذين نظروا إلى العقل الأداتي بوصفه مصدر كل الشرور التي يعيشها البشر في زمننا هذا، وأعملوا مبضع النقد الجذري (الراديكالي) في أمراض العقل الذي ضل طريقه وانتهى إلى التحطيم الذاتي (Auto-destruction) وتحوّله إلى قوة ارتكاسية، بيّن يورغن هابرماس Jürgen Habermas ممثل الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت، أنّ العقلنة أو الحداثة لم تستنفذ كل إمكاناتها وبأنّ الجيل الأول لم ينظر إلا إلى جانب واحد منها، أي إلى السلبيات والنقائص المتراكمة عبر التجليات السياسية أي تلك الشرور والفظائع والكوارث التي وقعت تحت غطاء العقلنة الصارمة والتنظيم المحكم والتقدم الإنساني.

ولا ينكر هابرماس هذه السلبيات وغيرها، ولكنه يرى بأنّ هناك جانبا آخر للعقلنة أو الحداثة، وهو جانب إيجابي وإنساني،ويتمثل في العقل التواصلي، أي العقل كتواصل وحوار ديمقراطي. لقد عمل هابرماس على تجديد وتحيين النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ضمن ما يسميه بنظرية الفعل التواصلي، وقد قام من خلال نموذج التواصل اللغوي بتأسيس معياري للنظرية النقدية التي وصلت إلى نوع من الانسداد في أفق تغيير الوضع القائم على السيطرة، وتقديم البديل الممكن للعقلانية الأداتية التي أحكمت قبضتها الكلية على الطبيعة والإنسان، ففي كتابه الهام نظرية الفعل التواصلي قام بإعادة تأسيس النظرية النقدية على ما يسميه بالعقلانية التواصلية المرتبطة بعملية التنشئة الاجتماعية التي يخضع لها الأفراد بصورة عفوية وأساسية، وذهب إلى رأي مفاده أنّ عملية الاندماج الاجتماعي لا تتحقق إلا بواسطة التوافق أو التفاهم المتضمن للأفعال اللغوية للمشاركين والتي تفترض الاتفاق أو الإجماع بين هؤلاء المشاركين في عملية التواصل.

انطلاقا من هذا، يمكن القول بأنّ عملية التواصل حسب ممثل الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت مشروطة بالسياقات الاجتماعية والثقافية الخاصة، ولكنها

تبقى أيضا ذات طابع كوني، وعلى هذا الأساس، قدّم من خلال نظرية الفعل التواصلي القائم على اللغة المبدأ المعياري الذي يعطي مكانة أساسية للجانب الاجتماعي في النظرية النقدية.

يقصد هابرماس بالفعل التواصلي" ذلك التفاعل المصاغ بواسطة الرموز. إنه يخضع ضرورة للمعايير المعمول بها، والتي تحدّد تطلعات السلوكيات المتبادلة، بحيث يتعيّن أن تكون مفهومة ومعترفا بها من طرف شخصين فاعلين على الأقل"[1]. غير أنّ هذا التفاعل المصاغ بواسطة الرموز اللغوية هو الذي يضمن الوصول إلى حقائق متفاهم عليها بين الأطراف المتحاورة، علما أن الحوار في سياقه الاجتماعي أداة للقضاء أو لتجنب الحالات الباثولوجية (المرضية) التي تصيب المجتمع في لحظة تاريخية معينة، ولتحقيق للاندماج الاجتماعي لأعضائه من دون عنف أو تطرف قصد الوصول إل حقائق متوافق بشأنها، بحيث يلعب الحوار فيها دورا مركزيا تجنبا للصراعات الاجتماعية التي تهدد المجتمع، وهذا ما يجعل للحوار فاعلية كبيرة، ولا يتمثل العقل التواصلي– بحسب هابرماس– في الإقرار بحقيقة مطلقة ولا تسويغ شيء تم اختياره، بل يتمثل في السعي وراء الوصول إلى قرار أو اختيار أو تقويم من لدن متحاورين مناصفة[2]، من دون ضغط أو إكراه، إذ ليس من حق المتحاور أن يفرض موافقة على الآخرين، ولا تقييم مختلف الآراء، إذ يجب الاكتفاء بعرض المواقف والأفكار، والحوار هو الذي يحدّد مدى صحتها ومصداقيتها وصلاحيتها وبمدى تقبلها من قبل الذوات المتحاورة داخل الفضاء العمومي، في سياق تباين الآراء واختلافها والتنوع والتسامح الذي قوامه التذاوت المشترك القائم على مجال لغوي تداولي تراعى فيه قواعد المعقولية والصدق والدقة وتستند إلى مبدأ المناقشة ، بعيدا عن القهر والتسلط والعنف .

4- إنقاذ العقل: نحو نظرية الاعتراف:

غير أنّ العقل التواصلي لا يسمح – كما يرى ممثل الجيل الثالث أكسل هونيث Axel Honneth- بإبراز مكانة وأهمية طابع الصراع أو النزاع الذي يعيشه

---

[1] Jürgen Habermas. *La science et la technique comme idéologie*. Traduit par Jean René Ladmiral, Paris, édition Gallimard 1973 p 22.

[2] حسن مصدق، **يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت.النظرية النقدية التواصلية**. ص 121.

المجتمع الحالي، الذي لازالت آليات السيطرة أو الهيمنة متحكمة فيه إلى حد بعيد، لذلك اتخذ هونيث موقفا نقديا تجاه الكثير من الأفكار والطروحات التي تضمنها هذا المشروع.

هذا، ويمكن إجمال هذه الانتقادات على النحو التالي: إنّ نظرية هابرماس التي استندت إلى القواعد اللغوية الصورية لعملية التواصل الناجح قد تجاهلت ما يسمى بالتجارب الأخلاقية للجور الاجتماعي. ضمن هذا السياق، يرى هونيث أنّ ديناميات الاحتجاج لا يمكن تفسيرها بالتجربة المتعلقة بقواعد التفاهم اللغوي–كما زعم هابرماس– وإنما بأشكال الإهانة أو الإساءة الأخلاقية المرتبطة بانتهاك مبادئ العدالة الاجتماعية، أضف إلى ذلك أنّ الطبقات الاجتماعية نفسها• لم يتم استيعابها تماما داخل النسق التوافقي للشرعنة الرأسمالية المتقدمة، لذلك أكد هونيث على بقائها ضمن الفئات الاجتماعية وداخل مواقف نزاعية تغذيها مشاعر الظلم التي لم يتم صياغتها داخل الأنساق القيمية بصورة عامة، إذ أنّ التطلعات الأخلاقية الموجودة لدى هذه الفئات الاجتماعية تثبت أنّ هناك متطلبات اجتماعية بخصوص ما هو "عادل وطيب" وهو ما تم الاحتفاظ بها بصورة سلبية من خلال الشعور بالجور.

غير أن النظرية الهابرماسية قد عجزت عن إعادة بناء هذه التجارب الأخلاقية للذوات وتطلعاتها الأخلاقية وهذا قصد صياغة التجربة الفعلية للجور.لذلك فإنّ البراديغم التواصلي للتوافق العقلاني بمفهومه الهابرماسي لا يتوافق مع التجارب الأخلاقية للأفراد. إنّ" العنصر المعياري الحاسم الذي يكون حاضرًا في الحياة اليومية، لكنه يغيب عن وصف هابرماس "التواصلي" للحياة اليومية، الجسدية والانفعالية والنفسية، هو الكفاح من أجل نيل التقدير الاجتماعي.

ويأمل هونيث أن تمكن هذه الفكرة النظرية النقدية من تشخيص أحوال المجتمع المَرضية على نحو لا يقوى عليه نقد هابرماس"[1] فالاحترام بمعناه الأخلاقي لا يظهر أو يتبدى فقط في احترام الآخر كمُحاور عاقل ملتزم بشروط

---

[1] آلن هو، النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت)، ص95.

النقاش الحجاجي ولكن كشخص حامل لتطلعات قائمة على البحث عن تحقيق ذاته والاعتراف به اجتماعيا وأخلاقيا وقانونيا. وهو الأمر الذي دفع هونيث إلى القول بأن هابرماس لم يأخذ بعين الاعتبار –بشكل كاف– دور التجربة الأخلاقية للفاعلين الاجتماعيين وإنما اختزلها في التجربة اللغوية، وهذا منذ انتقال هابرماس إلى لحظة المنعطف اللغوي الشهيرة، بعد تأثره بأعمال أوستين وسيرل وفتنغشتين في السبعينات من القرن العشرين، ويشير هونيث إلى أنّ هذا المنعطف اللغوي يمكن أن ننظر إليه من زاويتين: الأولى، تتمثل في الجانب المتعلق بالبعد المنهجي، بمعنى أنّ هابرماس قد أعطى أهمية للغة من الناحية المنهجية، قصد إمكانية فهم العالم والتجارب الإنسانية كظواهر لغوية، وهذه المسألة لا يصح التقليل من أهميتها أو تجاهلها–كما يرى هونيث[1]–،أما الثانية، فتتعلق بالطابع الواقعي أو الفعلي للمنعطف اللغوي، حيث تم إعطاء الأولوية والأهمية القصوى للغة ،وهذا على حساب الواقع الاجتماعي نفسه، إذ –حسب هابرماس– كل ما له علاقة باللغة له معنى بالنسبة إلى علاقات التواصل بين الناس. غير أنّ هذا يؤدي حتما إلى اختزال براديغم التواصل، وفي الوقت نفسه إلى محدودية الفضاء الاجتماعي الذي يتم إذابته في عمليات الفهم اللغوي،علما أنّ هذا العلاقات الاجتماعية أوسع بكثير مما يتم تمثله عن طريق عمليات الفهم اللغوي، وما يثبت ذلك –كما يقول هونيث– هو أنّ التفاعلات قبل اللغوية التي يعيشها الطفل مع أمه تكتسي أهمية بالغة في الحياة الاجتماعية، وبالتالي لا يصح اختزال عملية التفاعل الاجتماعي والعلاقات التواصلية في ذلك البُعد الضيق المتمثل في التفاهم اللغوي. إنّ دلالة ذلك أنه لا يصح إهمال أو استبعاد الأشكال والأبعاد غير اللغوية لعمليات التواصل الاجتماعي، وخاصة تلك الأشكال التفاعلية غير اللغوية، كالحركات والأفعال الرمزية والجسدية. علما أنّ هابرماس لم يأخذ على محمل

[1] Axel Honneth, « La Théorie critique de l'école de Francfort et la théorie de la reconnaissance » in *La société du mépris. Vers une nouvelle théorie critique*. *Op.cit.*, p.161.

الجد مثل هذه الأشكال أو التجارب. إنّ عملية التذاوت تتكون من خلال هذه الأشكال التواصلية المرتبطة بصورة قوية بالجسد "الذي لا يلعب دورا تكوينيا فقط وإنما دورا بنيويا أيضا في كل تفاعلاتنا وتعبيراتنا[1]. وبذلك تتبيّن الحاجة إلى ضرورة الانتقال من اللغة إلى التجربة الاجتماعية مما يسمح بتجاوز النظرية الهابرماسية التي أعطت الأولوية والأسبقية الفعلية للغة. وبهذا، فإنّ إهمال طابع التنازع (أو النزاعي) "للحياة الاجتماعية" يمثل اعتراضًا أساسيًا —حسب هونيث— على النظرية التواصلية.

لقد تحفّظ هونيث أيضا عن تمييز هابرماس بين "النسق" و" العالَم المُعاش" الذي ترتب عنه —كما يقول— نوع من " التوهم" النظري، وذلك لأنّ هذه النظرة إلى المجتمعات المعاصرة التي تميّز بين العالم المُعاش المُبنين (Structuré) بمعايير التفاهم اللغوي والنقاش الخالي من كل إكراه —حسب ما ذهب إليه هابرماس وأكده في مختلف كتاباته— وعالم نسقي محكوم بنوع من الإكراه الوظيفي وعلاقات السلطة كان من الممكن تفاديه انطلاقا من تصوّر تتزامن فيه العلاقات النزاعية للمجال التواصلي مع أشكال مأسسة معايير العالم المعاش من الناحية الوظيفية للنسق.

وهكذا، وانطلاقا من مناقشته النقدية لنموذج التواصل الهابرماسي توصل هونيث إلى قناعة فكرية راسخة تتمثل في القول بأنّ نظرية التواصل لم تعد كافية لتفسير النزاع الاجتماعي، لذلك كان لزامًا الاجتهاد لبلورة مفهوم جديد أي الاعتراف. ضمن هذا السياق يقول هونيث :" إنّ العالم المُعاش الأولي الخاص بالوجود الإنساني هو عالم الاعتراف لا عالم التفاهم اللغوي، والأولوية للاعتراف لا للتفاهم، وهو أمر يمكن إثباته بكل سهولة، وذلك لأنّ الاعتراف العاطفي يسبق دومًا— من الناحية التكوينية— عملية اكتساب اللغة"[2].

---

[1] *Ibid.*, p.164.

[2] Axel Honneth, « La Théorie critique de l'école de Francfort et la théorie de la reconnaissance » in *La société du mépris. Vers une nouvelle théorie critique. Op.cit.*, p. 17.

خاتمة:

نختم هذه الدراسة بالقول إنّ اهتمام مفكري الجيل الأول من مدرسة فرانكفورت(هوركهايمر، أدورنو، ماركوز) قد انصّب على نقد جذري للعقل الأداتي الذي توجّه في خضم التطور التاريخي نحو تحقيق أهداف السيطرة والتسلط الكامل على الطبيعة والإنسان، تولدت عنه ما يُسمى بالنظم الشمولية والتسلطية كالنازية والفاشية والستالينية، وبذلك دمّر العقل نفسه وفشل مشروع التنوير والحداثة وانتهى إلى البربرية والكوارث والحروب التي أصبحت تعبّر عن استفحال الشرّ وانتشاره بصورة مخيفة ومقلقة في المجتمعات المعاصرة.

غير أنّ النقد الجذري للعقل لا يعني—حسب ممثل الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت يورغن هابرماس– تشكيل قطيعة كاملة معه،لأن هذا النقد كان موجها في الأساس لانحراف العقل التنويري عن مساره حينما أخذ طابعا أداتيا وأفرز تلك المظاهر السلبية التي أشرنا إليها سابقا، وهذا يعني أنه لا يصح الوقوف ضد العقل بمفهومه السليم لا المنحرف، إذ يمكن أن تتفادى المجتمعات المعاصرة سلبيات العقل الأداتي التي انكشفت في سياق إنجازاته وتحققه التاريخية، والتي أدت — كما قلنا– إلى ظهور أزمات عميقة في المجتمعات الغربية المعاصرة، وهذا ما يفسّر لنا توجه هابرماس إلى نمط آخر من العقل يتباين كليا عن نمط العقل الأداتي (أو الذاتي)، المتمثل في العقل التواصلي.

أما ممثل الجيل الثالث لمدرسة فرانكفورت، أكسل هونيث، فقد أكد أنّ المقاربة التواصلية غير كافية لتجاوز الأزمات والشرور التي أصبحت تتخبط فيها المجتمعات المعاصرة، لذلك وجب الارتكاز على مفهوم الاعتراف لأنّ هذا المفهوم يمكننا من القيام بتحليل نقدي لآليات وأشكال التهميش الاجتماعي والأخلاقي والسياسي التي قد يتعرض لها الأفراد داخل الفضاء العمومي الذي يمكن أن يشكل مجالا مناسبا لتبلور أشكال الاحتقار والسيطرة وتجارب الظلم الاجتماعي والتهميش التي يعاني منها هؤلاء الأفراد، لذلك كان الاعتراف الاجتماعي مفهوما مركزيا

لتفادي بؤر التوتر والعنف واستبعاد شبح الحروب والشرور التي أصبحت تهّدد البشر في عصرنا هذا.